فصول من سيرة صدام السرية

الحلقة الثانية

> على الرغم من ان خيرالله طلفاح، خالُ صدام واحد اكبر الشخصيات الفاشية التي أثرت فيه، لم يكن لديه وقت للبعث، ولم ينضم إليه ابدا فانه اقام علاقة صداقة مع احمد حسن البكر، مواطنه التكريتي الذي كان برتبة لواء في الجيش العراقي، والذي سيصبح احد الأركان المهيمنين في الحزب، وأول رئيس بعثي للعراق. وبتشجيع من خير الله اخذ صدام تحت جناحه، وهي مشاركة اثمرت عن حكم الرجلين للعراق طوال عشر سنوات، ومن خلال البكر، تم تقديم صدام لحزب البعث وفي هذه المرحلة من حياته على كل حال، فان صدام كان مجرد نصير في الحزب وليس عضوا كاملا، ذلك ان العضوية في الحزب كانت مقيدة ومحدودة لاولئك الذين يثبتون ولاءهم للحزب، والتزامهم بايديولوجيته

وقد اسهم تورط صدام في المؤامرة لاغتيال قاسم بشكل كبير في النظر اليه باعجاب، وليس هناك رواية فضل لدوره في تلك القصة التي رواها بنفسه، والتي يعيد دوره الى الايام التي كان فيها في السجن في تكريت حيث قضى ستة اشهر في اواخر 1958 بشبهة اغتيال سعدون التكريتي، وكان هذا الاغتيال قد تم بعد فترة وجيزة من تسلم قاسم للسلطة وكنتيجة لذلك، اودع صدام السجن مع خير الله بعد ان اجتاح العنف البلاد. وادعى صدام انه استخدم حبسه لانقاذ زملائه في البعث من القتل على ايدي الشيوعيين في تكريت. ووفقا لرواية صدام للاحداث، فانه رشا بعض قراد حراس السجن من المتعاطفين، لاعتقال نشطاء البعث بتهم مصطنعة وايداعهم في السجن من اجل حمايتهم، وهكذا تم احضار عدد من البعثيين الى السجن، وحلية يام عدة كانوا يقبعون في الحبس حتى حلول الليل، ثم يطلق سراحهم لممارسة نشطتهم ويعودون قبل بزوغ الشمس.

كان ذلك يتم اثناء حملة التطهير التي اطلقها قاسم ضد البعثيين في اواخر عام 1958 واوائل عام 1959. ويدعي صدام انه قرع عنه في اوائل عام 1959، نتيجة لما وصفه بـ"الضغط القومي، بينما اطلاق سراحه كان نتيجة ان سلطات الادعاء العام ربما لم تكن قادرة او غير راغبة للعثور على الدليل الكافي لاتهامه باغتيال التكريتي. وقال صدام انه عاد بعد ذلك الى بغداد بناء على طلب الحزب، حيث سأله احد الرفاق، في ما اذا كان راغبا في اغتيال قاسم، فقبل على الفور لانه اعتبر ان هذه التهمة تشريف وتكريم له، وبدا بعد ذلك التدرب على استخدام الاسلحة الاوتوماتيكية، وكانت الخطة من بنات افكار فؤاد الركابي الأمين العام لحزب البعث الذي شغل لفترة وجيزة منصبا وزاريا في حكومة قاسم، والذي قتل فيما بعد في احد سجون صدام.

خطة الاغتيال

كانت الخطة تقضي باغتيال قاسم، في شارع الرشيد اثناء عودته الى منزله من وزارة الدفاع. ولاحظ نشطاء الحزب ان قاسم يفتقر الى الحماية الكافية، وتم وضع خطة الهجوم بحيث تفتح مجموعة من المسلحين نيران اسلحتها على المقاعد الخلفية من سيارة قاسم، بينما تقتل المجموعة الثانية الجالسين في المقاعد الامامية، أما دور صدام في مجموعة الاغتيال المكونة من خمسة اشخاص فتمثل في التغطية لتمكين فريق الاغتيال من الفرار. وفي الواقع فان مشاركة صدام في محاولة اغتيال قاسم تقررت في اللحظات الأخيرة، وفريق الاغتيال الرئيس كان مكونا من اربعة اعضاء في البعث، بقيادة عبدالكريم الشيخلي وكان طالبا في كلية الحلب، والذي اصبح واحدا من الايديولوجيين الرئيسيين في الحزب واحد اصدقاء صدام المقربين. بعد وضع الخطة، اعتذر أحد المسلحين عن المشاركة خوفا مما سيحدث لأسرته إذا ماقتل في الهجوم، وهنا طرح اسم صدام الذي اكتسب سمعة بعد ان قتل سعدون التكريتي برصاصة واحدة دون ان يترك أي دليل على فعلته. حدد موعد الهجوم يوم 7 تشرين الاول 1959. وحتى يكون ملما بالمنطقة ستأجر صدام شقة أصبحت قاعدة للعملية. وأخذ يحدد أفضل الوقت لتنفيذ الهجوم ونقاط الهروب. وتمت العملية بعد ظهر يوم السابع من الشهر المذكور، لكن وبسبب الإثارة على ما يبدو سحب صدام مدفعه الرشاش من تحت معطفه الذي استعاره من خاله خير الله لتنفيذ المهمة وفتح النار على سيارة قاسم قبل الوقت المقرر، وقبل ان يتمكن الآخرون من فتح النار، تمكن حراس قاسم من مواجهة الموقف، قتل سائق سيارة عبدالكريم قاسم الذي أصيب في ذراعه وكتفه، كما قتل أحد افراد مجموعة الاغتيال، وأصيب صدام في ساقه، على يد أحد زملائه الذي بدأ باطلاق النار على كل شيء يتحرك أمامه بمن فيهم صدام.

تمكن أعضاء فريق الاغتيال الذين اعتقدوا انهم قتلوا قاسم وفجروا مهمتهم من الفرار إلى أحد مخابئ الحزب في العاصمة، أما عبدالكريم قاسم فقد نقل إلى المستشفى واجري له العلاج اللازم. ووفقا لرواية صدام فانه بالنظر لتعذر ذهابه إلى مستشفى، أخذ سكينا وطلب من أحد رفاقه شق لحمه وإخراج الرصاصة، أغمي عليه لدقائق معدودة قبل أن يستعيد وعيه. والهدف من هذه الرواية إظهاره بمظهر القوي والبطل الاسطوري كما هي الحال في أفلام الغرب الأميركي، ولكن هذه الرواية تتناقض مع ما رواه الدكتور تحسين الملا، الذي استدعي لمعالجة صدام بعد محاولة الاغتيال الفاشلة، والذي قال "انه لم يكن سوى جرح بسيط عبارة عن كشط". كان الملا، وهو مثل الكثيرين من المعاصرين الذين اضطروا للهرب إلى المنفى أحد الأعضاء المؤسسين لحزب البعث الذي لم يكن عدد أعضائه وقتها يزيد على ألف شخص وقال: حينذاك كان معظم الأعضاء من الأطباء، والمحامين الذين لم تكن لهم معرفة وتجربة بالسلاح وكانوا بحاجة إلى أشخاص مثل صدام للقيام بالمهمات "القذرة" وكان ذلك أول عمل مسلح يقرر البعث تنفيذه. وقبل محاولة الاغتيال، كان الملا يعمل في التشفي الجمهوري، وبعد يوم واحد من العملية اتصل به أحد الأعضاء البارزين في البعث وأبلغه بوجود إصابات لأعضاء في الحزب، وطلب منه المساعدة فوافق على معالجة الجرحى، وتم اصطحابه إلى المنزل في أحد أحياء بغداد. وقال الملا ان أبلغ الإصابات كانت إصابة شخص يدعى سمير النجم وقد أخرج الطبيب رصاصة من كتفه، أما عن إصابة صدام فقال انه كان يرتدي "دشداشة" في غرفة مجاورة ولم تكن إصابته سوى عبارة عن سحج، وبعد أيام عدة أغار رجال الأمن على المنزل واعتقلوا من فيه وقتلا، أما الرشد عنهم فكان ذلك الشخص الذي اعتذر عن عدم المشاركة في محاولة الاغتيال أما صدام فكان قد هرب من البيت، أما قتلا فقد تمت محاكمته من قبل محكمة عسكرية وحكم عليه بالسجن.

الأيام الطوال

وبرغم ان جرح صدام كان بسيطا فقد تم تضخيمه من قبل الماكينة الدعائية لصدام حتى ان معظم العراقيين كانوا مقتنعين بأن صدام كاد يموت بسبب الجروح التي أصيب بها، وفي فيلم عن حياة صدام للبكرة انتجته وزارة الإعلام العراقية وأطلق عليه اسم "الأيام الحلوال"، فقد صور الجرح على انه خطير حتى ان صدام لم يكن باستطاعته المشي، وقد عمل صدام نفسه على ادامة وتخليد هذه الخرافة. وعندما سئل صدام عن هذه الواقعة بعد سنوات عدة من قبل صحافي مصري، ادعى صدام بأنه لم يكن سعيدا بأدائه للمثل وتصويره له لانه لم يكن مبدعا. وقال "اريد من المخرج اعادة تصوير المشهد، لانني اتذكر ذلك اليوم وما حدث لم تلو من الالم حتى بعد اخراج الرصاصة". وتتواصل قصة صدام وما رافقها من بطولات عام 1959، بهروبه من بغداد، ولانه، ووفق سرد لا حدث، لم يكن باستطاعته السير، فقد اشترى حصانا من احد الاشخاص بمبلغ عشرة دنانير وركبه الى ان وصل الى تكريت. واشترى بعض الحشيش لحصانه وخبزا وتمر النفسه. وامضى الليلة مع بدوي، وفي الصباح انطلق في رحلته الطويلة الى سورية ثم نضم الى حفلة خطوبة في سامراء واكل وشبع من لحم الخرف التي تحرت بالمناسبة. وفي اليوم الرابع اعترضت طريقه شاحنتان من رجال الجمارك للسلحين. حاول التخلص منهم، لكنهم طوقوه وشهروا اسلحتهم في وجهه. اوقف صدام حصانه وتأكد من ان المعطف يغطي رباط سلاحه حتى لا ينكشف امره. وقد تمكن صدام من لخروج من هذه الورطة عندما طلب عن السبب في معاملته بهذا الشكل اعتذر القائد وقال انهم ظنوا بانه مهرب يلاحقونه. وعندما طلب القائد اوراق صدام الثبوتية، رد بأنه ليس لديه اي شيء لانه بدوي. واصل صدام رحلته الى ان وصل الى نقطة عند نهر دجلة تمكنه من الوصول الى تكريت، حاول اقناع صاحب مركب باخذه عبر النهر، لكن صاحب القارب رفض بسبب حظر التجول المفروض. وهنا، قرر صدام التخلي عن حصانه والسباحة. وضع سكينه وسط اسنانه وسبح في مياه النهر عند منتصف الليل. وكانت المياه في منتهى البرودة وعندما وصل الى الضفة الاخرى كان على وشك الانهيار. وقال صدام عن تلك الرحلة: "كنت مثل من تشاهدونهم في السينما واسوأ من ذلك، ثيابي كانت مبللة، وساقي مجروحة، ولم اكن قد تناولت مايكفي من الطعام لايام عدة". وعندما خرج من النهر، عرج صدام على منزل قريب بحثا عن طعام ومأوى لكن عندما قرع الباب، اعتقدت المرأة انه لص، ولم تكن لتدرك انه ثائر، وليس احد اللصوص. وقد تمكن صدام في النهاية من طمأنة العائلة بحسن نواياه واحسنت الاسرة وفادته. وفي الصباح انطلق في رحلته ومشى طوال اليوم وحتى الليلة التالية حتى وصل الى قريته العوجة. وبعد ايام انطلق مع بعض من زملائه البعثيين في الرحلة الى المنفى نحو دمشق العاصمة السورية التي وصل اليها بعد ايام عدة.

هو السبب

واذا ما اخذنا بالاعتبار ما نطوت عليه مشاركة صدام من مبالغات في مؤامرة الاغتيال، فان من غير المرجح ان تكون وقائع رحلته الى المنفى تبرر تلك الدراما الروائية التي قصها كتاب سيرة حياته. معظم المسؤولين عن مؤامرة الاغتيال تمكنوا من الهرب الى دمشق، وعلى سبيل المثال، فان الشيخلي قائد مجموعة الاغتيال، استقل القطار للوصول الى مدينة الموصل، ومن ثم الى سورية. وتلقى بعض الروايات اللائمة على صدام مباشرة لوفاة عبدالوهاب الغريري احد المشاركين في المجموعة، وبرغم ادعاءات صدام بانه وفر نيران التغطية لتمكين نقل الجرحى من المكان والذي استولت قوات الأمن على جثته، الأمر الذي مكنها بعد ذلك من التعرف على هويات المسؤولين عن المؤامرة بسرعة. وقد سمح صدام نفسه لأحد كتاب سير حياته بالاعتراف بأن العملية لم تكن ناجحة تماما، لأن تنظيم المؤامرة بمجملها قام بالبدائية.

طوال السنوات الثلاث والنصف التالية، عاش صدام في المنفى، بداية في دمشق وانتهاء في القاهرة. كانت دمشق البيت الروحي للبعث، للخبأ الواضح

وبالنسبة لصدام، الذي كان في العشرينات من العمر فقد وجد نفسه فجأة وسط أهم للنظرين السياسيين في تلك الأيام، كان ميشال عفلق عميد حزب البعث السوري وأحد المؤسسين للحزب عام 1944. وعلى عكس البعثيين العراقيين حينذاك، فان البعثيين السوريين كانوا يشكلون قوة مهمة ومن خلال ارتباطهم بعبدالناصر أسسوا أول دولة وحدة عربية.

وبرغم ان الكثيرين من المعاصرين لصدام كانوا يعتبرونه غير ذي شأن، فإن عفلق اهتم شخصيا بصدام الشاب ورقاه إلى مرتبة عالية بأن جعله عضوا كامل العضوية في الحزب، وقد تكون هذه اللفتة الكريمة تعبيرا عن إعجاب عفلق الحقيقي بصدام، أو ربما وهو الأكثر ترجيحا انها كانت تعبيرا عن الشكر لدوره في محاولة تصفية قاسم، وبالتأكيد فإن جهد البعثيين العراقيين لقلب لحكومة في بغداد جعلت منهم أبطالا في نظر القوميين العراقيين، ولقيت المحاكمات العسكرية اهتماما في العالم العربي، وقوبل تحدي بعض المتهمين البعثيين، برغم انهم يواجهون الحكم بالإعدام، الإعجاب داخل وخارج العراق. وجادلوا بأن واجبهم الوطني يحتم عليهم قتل قاسم لأنه سلم مقدرات البلد إلى الشيوعيين، وعند الانتهاء من المحاكمات حكم على ستة من المتهمين بالموت، غير ان هذه الأحكام لم تنفذ أبدا.

لعبة مزدوجة

شعر عفلق بالسرور لتوجه العنف الذي أيده البعثيون العراقيون، والذي سعى لاستغلال عدم الاستقرار السياسي الذي سببته محاولة الاغتيال الفاشلة في بغداد. وفي هذا التعطف كان عفلق يلعب لعبة مزدوجة، رتب لطرد فؤاد الركابي وأعضاء آخرين من قيادة البعث في بغداد تحت زعم انه لم يكن يجدر بهم إتحام الحزب في مؤامرة الاغتيال، وعمل بعد ذلك على تعيين مؤيديه في مناصب مهمة في حزب البعث العراقي، وبرغم ان عفلق قال فيما بعد انه لايستطيع تذكر لقاء صدام قبل عام 1963، فإن للنظر الهادئ وصدام قاما صداقة وربطة تكافلية. وكان عفلق الذي هيمن على البعث في سورية والعراق وراء انتخاب صدام عام 1964 في موقع مهم في القيادة العراقية لحزب البعث، وقد رد صدام الجميل لدى توليه السلطة بأن جعل من البعثية العقيدة السياسية الرسمية للعراق. وعندما توفي عفلق الذي أجبر على الذهاب إلى المنفى في العراق سنة 1989، أمر صدام بإقامة ضريح فخم لمؤسس البعث.

بعد نحو ثلاثة أشهر في دمشق، تنقل الاغتيال إلى القاهرة حيث انضموا إلى نحو خمسمئة شاب من البعثيين الذين تجمعوا في العاصمة المصرية. وكانت الحكومة السورية قد أرسلت هؤلاء إلى مصر بهدف استكمال تعليمهم، وفي الوقت الذي شارك فيه في مؤامرة اغتيال قاسم، فإن صدام لم يكن قد أكمل تعليمه الثانوي، وكان عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة يعارض قاسم لأنه نكث بوعده في ضم العراق للاتحاد، وكان عفلق وغيره من قادة البعث يعتقدون بأن للشاركين في المحاولة سيتمتعون بأمان أكثر في القاهرة من دمشق حيث كان النظام أقل استقرارا. أما الحملة لاسقاط قاسم، فإن أمرها سيتولاه بعثيون أرفع وأكثر خبرة.

صدام في القاهرة

كانت هذه للرة الأولى في حياته التي يعيش فيها صدام خارج العراق، وبعد وصوله عام 1960 التحق بمدرسة قصر النيل الثانوية، وكانت القاهرة حينذاك عبارة عن خلية من النشاط السياسي، وإلى جانب الدراسة تخرط صدام في السياسة، وانضم إلى حزب البعث المصري، وخلال شهر أصبح عضوا في قيادته الاقليمية. وبرغم ان نفوذ البعثيين كان محدودا بوجود ناصر المهيمن، فقد كان ذلك العامل من بين العوامل التي دفعت بسورية للانسحاب من جانب واحد من الوحدة سنة 1961. وتتصف ذكريات صدام حول سنواته في المنفى بالتواضع. وقال أحد كتاب سيرة حياته انه كان يحاكي عبدالناصر ويلعب الشطرنج، ولم تأخذه حياة الليل في القاهرة وكان يقرأ كثيرا، وقد دعم هذا القول عبدالمجيد فريد، سكرتير عبدالناصر، والذي كان مسؤولا عن الاهتمام بشؤون البعثيين الشبان، وعلى حد قول فريد، فإن السلطات المصرية ساعدته في تعليمه وإيجاد شقة مناسبة، وقال فريد: كان واحدا من قادة البعث العراقي، وكان يأتي الي بين حين وآخر للحديث عن التطورات في بغداد، كان هادئا ومنظما، ولم يطلب للزيد من الأموال مثل للنفيين الآخرين، ولم يكن مهتما بالكحول او الفتيات.

كان عبدالكريم الشيخلي يبلغ عائلته من خلال الرسائل بأن صدام يمضي معظم وقته في متابعة تعليمه وانهاء دراسته الثانوية. وقد أصبح الشيخلي، الذي شغل منصب وزير الخارجية، صديقا مقربا ووثيق الصلة بصدام في القاهرة حتى انهما اصبحا مثل توأمين، وكان الشيخلي الذي سيصبح من اوائل ضحايا صدام يكمل دراسة الطب في القاهرة، ووصف صدام في إحدى رسائله لأسرته قائلا "انه رجل هادئ لكنه ليس اجتماعيا ويعمل جاهدا لتعليم وتثقيف نفسه". لكن معاصرين آخرين لايرسمون مثل هذه الصورة الوردية. صاحب مقهى كان يتردد عليه صدام وأصدقاؤه في القاهرة، قال عنه إنه "مثير للمتاعب وصاحب مشاكل لم يكن يدفع حسابه، وانه يثير مشكلة لأي سبب كان". وقال حسين مجيد صاحب مقهى "فديانا" الذي كان يتردد عليه صدام أيضا: "كنا نريد منعه من المجيء الى المقهى، لكن البوليس جاء وقال لنا انه تحت حماية عبدالناصر"، وعندما غادر صدام القاهرة بصورة نهائية كان مدينا بمئات عدة من الدولارات، لكن صدام لم ينس هذا الدين، ففي السبعينيات وعندما كان نائبا للرئيس العراقي وزار القاهرة رسميا، قام بزيارة مفاجئة للمقهى، دفع فاتورته بالكامل وترك لصاحبه مبلغ ثلاث مئة دولار كيفشيش. وفي القاهرة سرت شائعات واتهامات بان صدام قتل مواطنا مصريا سنة 1960 بالقائه من نافذة شقته، وايضا اتهم بقتل مواطن عراقي عام 1963، لكن لم تسجل ضده أي من هذه الاتهامات. صدام كان يعتبر اقامته في القاهرة أشبه بحكم بالسجن، تمكن من اكمال دراسته الثانوية والتحق بجامعة القاهرة لدراسة القانون، لكنه لم يكمل دراسته، غير انه تمكن من تأمين الحصول على شهادة بعد سنوات عدة، عندما تقدم للامتحانات السنوية بجامعة بغداد وهو يرتدي بزته العسكرية، وضع مسدسه أمامه على المقعد، وفي نهاية الأمر وصل إلى مبتغاه.

العلاقة مع الـ "سي.آي.ايه"

تميزت اقامة صدام في القاهرة بحدثين مهمين آخرين في حياته- زواجه الأول وتعاملاته للبهمة مع وكالة المخابرات للركزية الاميركية. زواجه من ابنة خاله ساجدة تم أثناء دراسته في جامعة القاهرة، وقد عاشا حلفولتهما في تكريت مع خاله خير الله، ولم يتزوج الاثنان حتى عودة صدام الى العراق سنة 1963. أما حفل الزواج فقد نظمه صديقه عبدالكريم الشيخلي.

والحدث للهم الآخر بالنسبة لصدام يتمثل في العلاقة مع "سي آي ايه" التي يكتنفها الغموض لكن هناك أدلة موضوعية كافية توضح أن صدام أجرى اتصالات مع محطة "سي آي ايه" في القاهرة. يحتل العراق قلب الشرق الأوسط، وكان ينظر اليه من قبل واشنطن كموقع استراتيجي مهم. ولهذا السبب فإن الولايات المتحدة شجعت انشاء حلف بغداد المعادي للسوفيات، منظمة الدفاع الإقليمي التي شكلت في أواسط الخمسينيات وتضم بريطانيا، تركيا، ايران وباكستان. وفي الواقع فإن الأميركيين كانوا ينظرون بعين القلق ازاء مستوى عدم الاستقرار السياسي في بغداد عقب الاطاحة بالملكية حتى أن الن دالاس مدير وكالة المخابرات للركزية الأميركية أعلن سنة 1959 قائلا: "ان العراق هو أخطر بقعة على الأرض. وبحلول عام 1961 فإن التطورات السياسية في للنطقة دفعت الأميركيين للتحرك في مواجهة ما اعتبروه محاولة سوفياتية خطرة للسيطرة على الشرق الأوسط". تم التعبير عن القلق إزاء صفقات عبدالناصر من الأسلحة مع موسكو، فيما شتبه بأن السوفيات كانت لهم يد في قرار عبدالكريم قاسم بالاعتماد على الشيوعيين العراقيين ببقائه في السلطة. أما قرار قاسم من جانب واحد بالانسحاب من حلف بغداد سنة 1959 والذي جعل من للنطقة عرضة أكبر للتسلل السوفياتي والاعتماد بصورة متزايدة على للساعدات الأجنبية السوفياتية والامدادات العسكرية، فإنه اثار شكوك واشنطن، وقد تزايد قلق الغرب بصورة أكبر عام 1961 عندما حاول قاسم احتلال الكويت، وتأميم جزء من شركة البترول العراقية للملوكة للأجانب، وهي خطوة تتصف بالسمعة والأصداء السيئة في نظر الأميركيين في ضوء برنامج عبدالناصر التأميمي الذي نفذه خلال سنواته الأولى في السلطة. كان للصريون برئاسة عبدالناصر مصممين حالهم حال الأميركيين على التأثير على التطورات السياسية في الشرق الأوسط، ولاسيما ان قرار سورية عام 1961 بالانسحاب من الجمهورية العربية للتحدة قد مثل طعنة لطموح عبدالناصر بانشاء دولة عربية متحدة، ولهذا السبب فإن العراق الذي نكث بوعده الانضمام الى الجمهورية العربية للتحدة عندما استولى قاسم على الحكم كان يحظى باهتمام خاص بالنسبة للمصريين، وكانت للخابرات للصرية نشيطة، كما هي حال وكالة المخابرات للركزية الأميركية في إقامة حكومة متعاطفة في بغداد. عميل الوكالة

ولما كان قد شارك في محاولة للاطاحة بقاسم، فلم يكن من للفاجئ ان تثير فشلة صدام وزملائه من البعثيين للنفيين الاهتمام الشديد من كلا من للخابرات للصرية والاميركية على حد سواء. وقد اصيبت العلاقات بين للنفيين البعثيين والسلطات للصرية بالفتور بعد ان انسحب البعثيون السوريون من الجمهورية العربية للتحدة، وهي خطوة لقيت التشجيع من ميشال عفلق معلم صدام.

في غياب القانون يسود الانتقام

حكاية عمار الذي يبحث عن قتلة أبيه..

باي فرانك
ترجمة عمران السعيدي

في البحث عن العدالة بالمعنى الفردي راح بعض العراقيين يمارسون الإنتقام لتصفية حسابات قديمة. واحد من هؤلاء عمار السامرائي الذي يحمل نظرة مريبة في عينيه ومسدساً في جيبه، وهو في الثلاثين من عمره يسبح بمسبحة الصلاة ويتكلم عن الانتقام.

أصبح السامرائي على هذه الحالة منذ صباح يوم الثامن عشر من أيلول الماضي حين كان أبوه الموظف البعثي السابق والذي أصبح سائق تاكسي بعد الحرب لأنه طرد من عمله، حين فاجأته سيارة كابرس بيضاء وقطعت الطريق أمامه وترجل منها رجل يحمل مسدساً ثم أطلق عليه أربع إطلاقات إثنتان في الرأس وإثنتان في الصدر، ثم قفز إلى الكابرس ولاذ بالفرار.

عدي شفيق السامرائي، الذي كان يعمل في مخبز قريب من الحادث سمع الإطلاقات وقال: كنت أمزح مع أصدقائي حين قلت:

"مات الرجل" ثم شاهدت السيارة، ركضت نحوها وإذا به والدي ممدداً بدخلها وقد غطته الدماء. وبعد أن سحبته من السيارة خارجاً تجمع الناس حولي وصرخت للمساعدة لكنهم لم يساعدوني إلا بعد نحو (25) دقيقة. وكان لا يزال يتنفس.

الجميع يخشى للساعدة في مثل هذه الحالات والكل يخشى القتلة حتى رجال الشرطة الذين قالوا أن هناك تسعة حوادث قامت بها نفس السيارة البيضاء واستهدفت بعثيين من للنطقة نفسها.

يقول السامرائي عن هذا الحادث: "إن هدفي الوحيد الآن هو الإنتقام، أعمامي وعشيرتي قرروا القبض على الجناة. وقد استشرت العديد من كبار رجال الدين في سامراء وقالوا إن القاتل يجب أن يقتل حتى ولو بعد حين.. ودم السلم لن يضيع أبداً". هذا وقد أصبحت قصة السامرائي معروفة لدى الجميع.

إن قتل البعثيين أصبح أمراً أشائعاً في منطقة تؤمن بقانون حمورابي قبل أربعة آلاف عام الذي سن قانون: (العين بالعين والسن بالسن).

إن الكثير من عمليات الاغتيال تأتي من قبل جهات عانت الكثير من البعثيين من قتل وتعذيب وتشريد، ولهذه الجهات أجندات سياسية كالشيعة مثلاً والأكراد. ويعتقد أن البعثيين هم الذين يقومون بجزء كبير من أعمال التمرد للضادة لقوات التحالف، ومن المحتمل أن يكونوا مسؤولين عن عمليات الاغتيال التي حصلت مؤخر أضد القادة الشيعة وبعض القضاة. والخوف من أن تكون هذه البداية لدائرة العنف الدامية والتي قد تعتمد رغبة إدارة بوش بنقل السلطة السياسية إلى العراقيين.

إن موظفي البعث كانوا آلة الرعب القاتلة التي مارست القتل والتعذيب طوال الـ(35) سنة من حكم صدام. يقول للسؤولون الأمريكان أن أكثر من (300) ألف ضحية تنام الآن في القابر الجماعية بسبب ممارسات النظام البعثي ضد أبناء الشعب وأغلبهم من الشيعة والأكراد الذين كانوا يعارضون ذلك النظام الوحشي والقبور. مع ذلك فإن أكثر من (1.5) مليون عضو في البعث انضموا إليه لأجل الحصول على وظائف حكومية بكل بساطة والحصول على أموال يهبها لهم الدكتاتور كي يقوموا بتنفيذ ما يطلب منهم من أعمال مشينة وجرائم بحق أبناء الشعب، وهم يقولون بأنهم أصبحوا مستهدفين بأعمال القتل مع إغماضة عين قوات التحالف عن ذلك والتي تسمى (العين العمياء).

وميض نظمي أستاذ علوم سياسية سابق في جامعة بغداد يقول إنه شاهد العديد من زملائه البعثيين وقد طردوا من العمل، وأن عدداً من أفضل الأساتذة والعلماء قد غادروا البلاد.

يقول هذا الأستاذ: "إذا ما ضحك الأمريكان بمشاهدة وقتل البعثيين فليتوقعوا الآن بعد أشهر أن هذا البلد لن يكون خاضعاً للقانون والنظام.. بل هو بلد الاغتيال والاغتيال للضاد.

الفاحص في الطب العدلي قيس حسن سلمان يقول إن دائرة الانتقام قد بدأت، وهو يصف جثة جلبت إليه بواسطة شرطة بغداد: الرجل كان قد عذب ثم أطلقت رصاصة واحدة في جبهته ووضعت جثته في كيس قمامة مع تعريف بالقتيل جاء فيه: (أحمد ثابت عزام التكريتي الذي شارك في إغتيال لحكيم) قالت الشرطة التي جلبته أن هناك جثتين بنفس الحالة لكنهم لم يحققوا بالأمر خوفاً من خطورة النتائج بما فيها أفراد الشرطة نفسها.

في داخل مكاتب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية توجد صور على الجدران ترمز إلى وحشية التعذيب الذي مارسه البعثيون تنفيذاً لأوامر سيدهم. تقول بعض الكتابات على هذه الصور: "إعتاد البعثيون القتل، والتدمير والتعذيب تنفيذاً لأوامر سيدهم... ولكنهم الآن في سلام ولا يخشون أي عقاب".

عبد العزيز لحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وعضو مجلس لحكم العراقي يتهم البعثيين باغتيال شقيقه وطالب للواطنين بـ: "اجتثاث القتلة البعثيين واتباع صدام بالقوة".

أما قائد قوات بدر فيقول: "يوجد بعثيون لم يرتكبوا أية جريمة وأخبرونا بأنهم سوف يعودون إلى الصف الوطني وهم أصدقاء لنا وأخوتنا. لكن هناك من ارتكب ويرتكب الآن الجرائم ضد أبناء الشعب وسيكونون أهدافاً لنا. نحن قدمنا مئات الآلاف من الضحايا والمفقودين ولن نتراجع عن مواجهة من يقف ضد أمن الوطن وأبنائه".!

السامرائي لديه وجهة نظر أخرى فهو يركب سيارته التي يبدلها كل بضعة أيام ويسوقها ليلاً عادة. وحين يشخص قتلة أبيه سوف يجمع عدة رجال من أبناء عشيرته ويصطادهم حسب إعتقاده ويقول: (لو اعتقدت أن الحكومة بإمكانها الانتقام لي لتركت لها الأمر ولكني مقتنع تماماً بعدم إمكانها ذلك. وحين أجد القتلة سوف أجلب لكم صور جثثهم!).

عن يو أس نيوز نيتشن وورلد

أطول حروب إفريقيا: هل تنتهي قريبا؟

شهد السرح السياسي في السودان أخيرا تطورات متسارعة وخطوات غير مسبوقة تتجه إلى إنهاء أطول حروب القارة السمراء وطي ملف نزاع مرير بين حكومة الرئيس عمر البشير ومعارضتها استمر 14 عاما، وفرض واقع جديد في البلاد سياسيا واقتصاديا وعسكريا مما يشي بمولد "سودان جديد".

وكانت مدينة جدة الساحلية في للملكة العربية السعودية استضافت يوم الخميس 4 ديسمبر الجاري لقاءا مهما بين النائب الأول للرئيس السوداني علي عثمان محمد طه وزعيم "التجمع الوطني الديمقراطي" العارض محمد عثمان الميرغني انتهى بتوقيع اتفاق ما سمي بـ "الحل السياسي الشامل" الذي أقر تشكيل حكومة ذات قاعدة عريضة وتداول السلطة سلما عبر نظام ديمقراطي تعددي، وهو أول اتفاق بين الجانبين منذ رفع العارضة السلاح في وجه الحكومة قبل 14 عاما. وبعد يوم منه حط في الخرطوم تسعة من قادة "الحركة الشعبية لتحرير السودان" بطائرة ليبية وهي خطوة لم تحدث منذ تأسيس الحركة في شهر أيار من عام 1983، وكان من أبرز وجوه الوفد مساعد رئيس الحركة باغان أموم والتحدث باسمها ياسر عرمان، ومسؤول الخابرات أدوارد لينو، والناطق باسم "الجيش الشعبي لتحرير السودان" سامسون كواجي ومسؤول الحركة في جبال النوبة عبد العزيز الحلو، وهدفت الزيارة تدشين نشاط الحركة في الخرطوم وتحولها إلى تنظيم سياسي. وعقب 24 ساعة استضاف الرئيس عمر البشير في مقر إقامته رئيس الوزراء الأسبق وزعيم حزب الأمة (أكبر الأحزاب السودانية) الصادق الهدي واتفق معه على الانضمام إلى حكومة عريضة بعد إقرار اتفاق سلام نهائي في تطور مهم أنهى الخلاف بينهما منذ توقيع الطرفين اتفاقا في جيبوتي في تشرين الثاني من عام 1999 لم يترجم بعدما اتهم الهدي الحكومة بالوقوف خلف تشاق مجموعة من حزبه بقيادة ابن عمه مبارك الفاضل الهدي شاركت لاحقا في السلطة وصار مبارك مساعدا للرئيس البشير.

دبلوماسية ومطاردة

وتأتي هذه التطورات التلاحقة في ظل اهتمام أميركي متزايد بسير وتفاصيل عملية السلام في السودان بدأ منذ شهر سبتمبر 2001 عندما عين الرئيس جورج بوش مبعوثا خاصا للسلام في السودان هو السيناتور السابق جون دانفورث، ثم منسقا للسلام في الإدارة الأميركية هو السفير جف ملنفتون.

وظل مساعد وزير الخارجية الأميركي للشؤون الأفريقية وولتر كونستايز وخلفه شارلس سنايدر يطاردان مسؤولي طرفي النزاع السوداني (الحكومة والحركة الشعبية) بالاتصالات هاتفية وزيارات مكوكية آخرها الشهر الماضي. بل إن وزير الخارجية كولن باول تدخل شخصيا عندما زار مقر محادثات الحكومة والحركة في ضاحية نيفاشا الكينية في تشرين الأول الماضي وحصل على التزام من نائب الرئيس السوداني علي عثمان محمد طه وزعيم (الحركة الشعبية) العقيد جون قرنق بالتوصل إلى اتفاق سلام قبل نهاية العام الحالي. ولم تكتف واشنطن بذلك إذ أجرى الرئيس جورج بوش تصالين هاتفيين مساء البشير وجون قرنق جدد فيها الدعوة اليهما للحضور إلى واشنطن واستضافة "حديقة الزهور" في البيت الأبيض لحفل توقيع اتفاق السلام النهائي بينهما.

نهاية النفط؟

عمليا تجدر الإشارة إلى أن وفدي الحكومة و"الحركة الشعبية" اتفقا خلال محادثات السلام الجارية بينهما منذ أول الشهر في ضاحية نيفاشا الكينية على إنهاء الجولة الحالية في 19 كانون الأول الجاري لمناسبة أعياد الميلاد، وأقر التريع للفاوضات وبذل جهود مكثفة من أجل حسم القضايا العالقة للرتبطة بالاقتسام السلطة والثروة ومستقبل للناطق المهمشة الثلاث.

ومع استمرار وجود تضارب بين مواقف الطرفين في بعض القضايا، ما زالت مسائل نسب مشاركة "الحركة الشعبية" في الحكومة والبرلمان والأجهزة الأمنية وتوزيع عائدات النفط ووضع العاصمة التشريعي وموعد إجراء الانتخابات موضع خلاف ولا يرجح ان يوقع الطرفان اتفاقا نهائيا في الأيام التبقية حتى وان هناك مسائلتين مهمتين سيجرى نقاشهما لاحقا تتعلقان بضمانات الاتفاق الرتقب والجهات الشاركة فيه خصوصا بعد إعلان الحكومة تمسكها بوجود مراقبين وليس قوات حفظ سلام، بجانب تفاصيل الترتيبات الأمنية التي تتطلب نقاشا مستفيضا بين الطرفين في وقت لاحق.

ورغم ان تقارير في الخرطوم تحدثت عن ان البشير وقرنق سيوقعان اتفاق السلام في واشنطن في الاسبوع الأول من كانون الثاني للقبل إلا ان مراقبين يتوقعون أن لا يتجاوز توقيع الاتفاق شباط (فبراير) للقبل نسبة لاستعجال الرئيس جورج بوش باعتبار ان الخطوة مرتبطة بالحملة الانتخابية الرئاسية الأمريكية التي تبدأ عقب عطلة أعياد الميلاد، ويعتقدون ان إنهاء أطول حروب أفريقيا سيكون ورقة رابحة لبوش بعدما واجهت حملته العسكرية في أفغانستان والعراق صعوبات عدة، باتت تهدد مستقبله السياسي جديا.